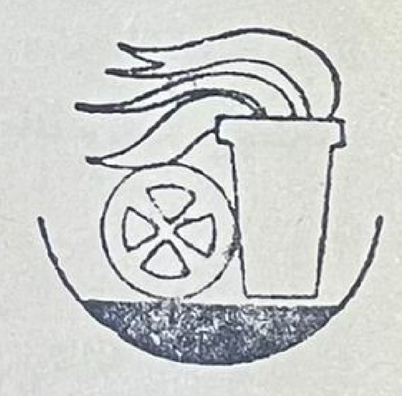
الثقافة الجديدة

فكر علمي ثقافة تقدمية

العدد ٦٥ ــ ايلول ــ ١٩٧٤



صاحب المجلة
الدكتور صفاء الحافظ
رئيس التحرير
مكرم الطالباني
مدير الادارة
شمران الياسري
العنوان :
شارع السعدون ــ بتاويين
محلة الرواف ١٥ـ١٢ـ١
ت ــ ٨٣٩٧٣

مطبعة الشعب ــ بغداد

تعقيب على مقال
«علم المنعكسات الشرطية» للدكتور نوري جعفر

د. نمير العاني

تكتسب معالجة مشكلة الاساس الفسلجي لعملية الانعكاس لدى الانسان ، او بصورة اوسع واعم ، مشكلة الالية الفسلجية للعملية التفكيرية من مواقع علمية اصيلة اي من مواقع المادية الديالكتيكية ، اهمية استثنائية بالنسبة للقارىء العربي ، ذلك لان المكتبة العربية لا تزال مغرقة بالدراسات البرجوازية للمشكلة ، الدراسات التى تقوم على نظرة مثالية فلسفية عريضة فاننا ، اذن ، بحاجة ماسة الى اية دراسة جادة فى هذه المشكلة التى تعتبر من المشاكل الكبيرة فى فسلجة الجهاز العصبي المركزي وعلم النفس والفلسفة معا . وتقد جاء مقال الدكتور نوري جعفر المنشور فى العدد السابق من الثقافة الجديدة تحت عنوان «علم المنعكسات الشرطية» المكرس الحديث عن احد جوانب المشكلة المشار اليها محاولة جادة على طريق مثل هذه الدراسة وتلك المعالجة . ان هذا

المقال الذي يضم جوانب ايجابية عديدة وفائدة واضحة تضمن في الوقت ذاته بعض الاراء التي لا يمكننا الاتفاق معها والتي نرى ، لهذا السبب ، لزاما علينا مناقشتها وصولا للحقيقة الموضوعية ، التي نستهدفها جميعا .

يبدأ الدكتور نوري جعفر مقاله بتأكيده ان «الانعكاس الفسلجي (او الانطباع الذهني) .. هو بشكله الارقى أحد خواص الدماغ او **احد اشكال المادة ..**»(١) ليس من الصعب ان نلمس هنا ان الكاتب الفاضل ينتهي في هذه الموضوعة الى **مطابقة** الحركة مع المادة بشكل مباشر ، وذلك لانه يضع علامة مساواة بين احدى الصيغ (الاشكال) الملموسة لحركة المادة (أي «الانعكاس الفسلجي» ، على حد تعبيره) وبين المادة ذاتها معتبرا أياها احد اشكال الاخيرة . فمن المعلوم ان «الانعكاس الفسلجي» لدى الانسان ، ليس الا وظيفة من وظائف الدماغ البشري، «خاصية من خواصه» اي **اسلوب** (او احد اساليب) **وجود هذا الاخير** ، احدى صيغ نشاطه ، وبالتالي ، **احد الاشكال التي تتحقق فيها حركة المادة التي وصلت الى اعلى درجات التنظيم والتطور على سطح كوكبنا** . بكلمات اخرى ، انه يوءلف في حقيقته **احد الاشكال الراقية التي تتجلى فيها حركة المادة** . هذا في حين ان الدكتور الفاضل يعتبره كما رأينا ، «احد اشكال المادة» انه ، بعبارة ثانية ، يعتبر «الانعكاس الفسلجي» ، هذه الخاصية من «خواص الدماغ» مادة ، اي يقر مادية «خواص الدماغ» ، كون هذه الاخيرة اشكالا للمادة نفسها .

ان مطابقة صيغة ملموسة لحركة المادة مع المادة نفسها لا تلبث ان توءدي الى مطابقة الحركة مع المادة مطابقة مطلقة ، اي توءدي الى ما يدعى بالمادية المبتذلة ، مادية فوغت وميلشوت واخرين من الذين اقروا مادية وظائف (خواص) الدماغ ، مادية الفكرة ، حين اكدوا ان الدماغ يفرز الفكر كما يفرز الكبد الصفراء . ان الديالكتيك المادي يرفض هذه النظرة رفضا كليا . ان الدكتور نوري جعفر نفسه يقوم نظرية الماديين المبتذلين هذه كنظرية لا علمية مرفوضة (٢) .

ان [illegible] يمكن ان تكون شكلا من اشكال المادة حتى على صعيد الصيغ الاكثر رقيا التى تتجلى فيها . بل ونقول اكثر من ذلك. انا حتى في تعريف الحركة كاحد اشكال وجود المـادة (٣) نجد مـن الغموض وعدم الدقة ما يكفيان لرفضه . ان النواقص التى يعانى منها حتى هذا التعريف والتى هي كافية ، كما اشرنا لرفضه ممكن ان تجمل بالاتـــي :

اولا : ان كانت الحركة هي احد اشكال وجود المادة فما هـــي ، يا ترى بقية هذه الاشكال) ان المعرَّف (بتشديد الراء وفتحها) ، كمـا نرى ، يبقى غير محدد كماً .

ثانيا : ان كانت الحركة هي احد اشكال وجود المادة ، فمـا هي يا ترى ، اوجه التشابه والتمايز بينها وبين بقية اشكال هذه الاخيرة . ان المعرَّف (بتشديدالراء وفتحها) يبقي غيرمتعين ، أي غير محدد كيفا .

ثالثا : ان كانت الحركة هي احد اشكال وجود المادة وحسب ، فكيف ، عندئذ ، نستطيع ان نفهم شمولية وحاسمية الحركة بصفتهـا (اتريبوت) للمادة ؟ ان المعرِّف (بتشديد الراء وكسرها) لا يعكس بالدقة المطلوبة ، كما نرى طبيعة المعرَّف (بتشديد الراء وفتحها) .

رابعا : حتى وان افترضنا اننا اخذنا نفهم الحركة ليس كشكل بسيط ، بل كشكل **عام** لوجود المادة ، فكيف نستطيع ان نميزهـا في مثل هذه الحالة عن الزمان والمكان اللذين هما ايضا شكلان عامـــان لوجود المادة .

كل هذه المآخذ الجدية على التعريف المذكور للحركة تجعل منـــه تعريفا ناقصا ، تعريفا غير دقيقا .

ان الحركة مرتبطة عضويا بالمادة . ولكن هذا لا يعني ان بينهـا وبين الاخيرة **تطابق مطلق** . من جهة ثانية ، نرى ان الحركة متمايزة عن المادة . ولكن هذا بدوره لا يعني انهما في **تمايز مطلق** . ان التطابق

والتمايز المطلقين هما علاقات غير واردة على صعيد الواقع الموضوعي فالحركة والمادة ، كأي ضدين فى الوجود ، موجودان فى آن واحد في وحده واختلاف ، فى تطابق وتمايز ، اي فى تطابق متمايز وفى تمايز متطابق . انهما متلازمان بشكل ديالكتيكي حي ، فكل منهما يشرط الاخر ويشترط به . **فلا حركة بلا مادة ولا مادة بدون حركة** . الحركة خارج المادة ، اذن ، هي **تجريد ميت** كالمادة خارج الحركة . بعبارة اخرى ، اننا لا نستطيع ان نفصل الحركة عن المادة، فصلامطلقا او بالعكس دون ان نميتهما معا . كل هذا يعني ان الحركة هي صفة اساسية ملازمة للمادة ، هي (اتريبوت) للاخيرة . انها **اسلوب وجود المادة ، طريقة حياتها** . يقول انجلز «**الحركة هي اسلوب (٤) وجود المادة** . لم توجد ولا يمكن ان توجد مادة بدون حركة في اي زمان ومكان ... فلا يمكن تصور المادة بلا حركة بالضبط كما انه من غير الممكن تصور الحركة بلا مادة » (٥) . هذا هو بايجاز فهم المادية الديالكتيكية لجوهر الحركة كظاهرة ولطبيعة علاقتها العضوية الحية مع المادة .

ما تقدم يعني ، اذن ، ان «الانعكاس الفسلجي» (وعموما مجمل نشاط الدماغ البشري) لا يمكن ان يكون «احد اشكال المادة» ، كما يوءكد الدكتور نوري جعفر فى مقاله ، بل هو احد اساليب (طرائق) وجود ارقى اشكال المادة على سطح كوكبنا الارضي (الدماغ البشري) ، اي احد ارقى الاشكال التى يتجلى فيها العكس ، الصفة العامة للمادة، وبالتالي احدى الصيغ الاكثر تطورا التي تظهر فيها حركة المادة على سطح ارضنا .

في مكان آخر من المقال موضوع النقاش ، نقرأ ما يلي : « ان قوانين الطبيعة والمجتمع والفكر (باستثناء قوانين الديالكتيك الاكثر شمولا التى يظهر مفعولها فى نطاق الكون باسره) هي قوانين تأريخية خاضعة لعملية النشوء والارتقاء : اي انها نشأت بالتدريج وبمرور الزمن الطويل عندما توافرت ظروفها الموضوعية »(٦) اننا لا نشك

ابدا فى ان قوانين الفكر الانساني والمجتمع البشري وجزء من قوانين الطبيعة (كقوانين تطور الحياة العضوية على سطح كوكبنا ، مثلا) هي قوانين تأريخية ، غير ازلية ، أي هي قوانين تمتلك بداية او نهاية في الزمان (او كليهما معا) . لكننا في ذات الوقت لا نستطيع الاتفاق مع تعميم هذا الفهم على كافة قوانين الطبيعة . اننا لا نستطيع الاتفاق مع من يوءكد ان جميع القوانين الطبيعية هي قوانين **تأريخية ، حادثة.** ان الطبيعة على الصعيد الكلي لوجودها لا تمتلك لا بداية ولا نهاية في الزمان ، بالضبط ، كما انها غير محدودة ، لا نهائية فى المكان . وهذا بالضرورة يعني ان هنالك العديد من القوانين الفاعلة فيها خالدة ازلية لا تمتلك بداية او نهاية زمانية . وفعلا ، ان قوانين الميكانيك الكلاسيكي مثلا (ولنقل قانون الجاذبية الكونية) ، او قانون حفظ الطاقة وتحولها ، او القانون الثاني للديناميكا الحرارية .. الخ . هي قوانين ازلية غير حادثة على صعيد الكون عموما، اي لم تظهر وسوف لن تختفي على هذا الصعيد . لكن هذا يجب ان لا يعني ان قوانين الطبيعة لا يمكن ان تكون حادثة ، تأريخية ، أي ان تظهر وتختفي على صعيد هذا المجال الملموس او ذاك القطاع المحدود من مجالات وقطاعات الكون غير المتناهية . فالقانونية الفاعلة في الطبيعة ، اذن ، هي وحدة ديالكتيكية عضوية للحادث والقديم ، للتأريخي والازلي(٧) . ولذا فان أية محاولة لاختزالها بشكل مطلق الى اي من هذين الضدين لابد وان توءدي الى كل لا محدودية النظرة الميتافيزيقية التى تبقى نظرة لا علمية فى طبيعتها واصولها .

هذه هي بعض الملاحظات حول بعض الاراء الفلسفية التي وردت في مقال الدكتور الفاضل نوري جعفر «علم المنعكسات الشرطية» . هذا ولعلنا فى طرحها قد وفقنا فى الوصول الى غايتنا فى توضيح الحقيقة، التي تبقى رائدنا ابدا .

الهوامش :

١ ـ انظر : د. نوري جعفر . علم المنعكسات الشرطية . الثقافة الجديدة ، العدد ٦٤، آب ١٩٧٤ ، ص ٤٧ خط التشديد لنا .

٢ ـ انظر : المصدر السابق ، ص ٥٤ .

٣ ـ انظر ، مثلا : ف . افانا سييف . اسس الفلسفة الماركسية ترجمة عبدالرزاق الصافي ، الطبعة الثانية ، بيروت ، بغداد، ص ص ٣٧ـ٣٨ .

٤ ـ او طريقه .

(٥) ف . انجلز . انتي دوهرنك . ك . ماركس وف . انجلز . المؤلفات الطبعة الروسية ، المجلد العشرون ، موسكو ١٩٦١، ص ٥٩ . انظر كذلك : ف . انجلز . ديالكتيك الطبيعة . ك. ماركس وف . انجلز. المؤلفات . الطبعة الروسية ، المجلد العشرون ، موسكو ١٩٦١ ، ص ص ٦٣١ـ٦٣٢ .

٦ ـ د. نوري جعفر . علم المنعكسات الشرطية . الثقافة الجديدة ـ العدد ٦٤ ، آب ١٩٧٤ ، ص ٤٩ .

٧ ـ انظر ، حول ذلك : ف . انجلز . ديالكتيك الطبيعة . ك. ماركس وف . انجلز . المؤلفات . الطبعة الروسية ، المجلد العشرون ، موسكو ١٩٦١ ، ص ص ٥٥٣ـ٥٥٤ .

تصويب

وقعت في مقالة د . نوري جعفر المنشورة في العدد الماضي (٦٤) اخطاء نأمل ان يصححها القراء الاعزاء مع اعتذارنا له ولهم .

الصفحة	السطر	الصواب
٤٨	٤	يختلف اختلافا جذريا ونوعيا عن الانعكاس الفيزيائي .
٤٨	٨	استجابات (بدل استنباطات)
٤٩	٤ـ٧	المعرفة بالتعبير الاشمل الاتية من الممارسة وعن اللغة المتحدث بها ..
٤٩	الثالث من الاخير	تحذف كلمة العلمية الواردة بعد الاشتراكية
٥٠	١٦	يتعلق (بدل يتعين)
٥١	الاخير	تتأصل (بدل تستأصل)
٥٢	١٠	سكوتلندي (بدل فرنسي)
٥٣	٢٤	العلاقة (بدل بالعلاقة)
٥٣	٢٦	الحواس (تضاف بعد كلمة تتسلمها)
٥٤	٢	او بين المحتوى والمضمون وبين الاداة ...
٥٧	١٠	الموجودة في المنهج المدرسي . كما ان اختبارات الذكاء تعزو ...